



حتى نجيب على هذا السؤال، لابد أن نعرف لماذا تمت المباركة الدولية على استمرار هذا النظام لأكثر من أربعين سنة، بالرغم من المجازر الغير مسبوقة التي ارتكبها بحق الشعب السوري والتي طالت أيضاً الفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين. لابد أن نعرف أولاً أن ضمان أمن وسلامة إسرائيل على أرض الواقع هو العامل الأول والأهم الذي يحدد مباركة الغرب خصوصاً والعالم عموماً لاستمرارية أي نظام في منطقتنا لهذه الفترة الطويلة، بغض النظر مما يجري ويقال في وسائل الإعلام. وكيف يمكننا إنكار ذلك وإسرائيل هي الدولة الأقوى عسكرياً في المنطقة، والمدعومة من أمريكا الدولة الأقوى عسكرياً في العالم؛ ويمكننا إيجاز الخدمات التي قدمها نظام الأسد (الأب) لإسرائيل بخمسة أسطر:

تسليم الجولان عام 1967 دون معركة حين كان وزير الدفاع المساعدة على إخراج المقاومة الفلسطينية من الأردن عام 1970 أثناء أحداث أيلول الأسود حين منع سلاح الجو من الاشتراك في الأعمال القتالية مع القوات البرية.

ارتكاب مجررة مخيم تل الزعتر في لبنان لكسر شوكة المقاومة الفلسطينية وترويضها عام 1976. بعد فشله بترويض المقاومة الفلسطينية في لبنان، قام بالتعاون مع إسرائيل عام 1982 على إخراجها من لبنان إلى تونس أثناء الغزو الإسرائيلي. وقد تمت مكافأة هذا النظام بالسماح له بتمثيل مسرحية (حرب تشرين) عام 1973 لاعطائه مسحة من الشرعية والشعبية سورياً وعربياً، ثم بالسماح له باحتلال لبنان. وكذلك بغض النظر عن أ بشع مجررة ارتكبها نظام بحق شعبه ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهي مجررة حماة التي راح ضحيتها أكثر من خمسين ألف مدني خلال أيام.

ومن هذه المجزرة بالذات يمكننا قراءة مدى تمسك (الغرب) بهذا النظام واعتماده عليه لتأمين ما يسمونه هم (بالاستقرار) في المنطقة وما يعنون به في الواقع (استقرار) أمن وسلامة إسرائيل، حتى وإن كان ثمن ذلك عشرات الآلاف من أبناء الشعب السوري وجيرانه من العرب.

طبعاً لابد من الإشارة هنا أيضاً أن أحداً لم يشجع هذا النظام على ارتكاب تلك المجازرة أو غيرها، فلا أحد ولا حتى الديكتاتور نفسه، يرغب بارتكاب مجازر وحشية كهذه تفقده صورة (الأب الحنون المحب لأبناء شعبه أو الأم تيريزا). ولكنه وحين يجد نفسه مضطراً لذلك، فهو لا يتردد بارتكابها، وهنا ينظر الغرب إلى فائدة هذا النظام بالنسبة له، فإذا ما أن يرفع له بطاقة (حقوق الإنسان)، وإنما أن يجد له المبرر أو الغطاء لهذه المجازر كأن يقول أنه لا يوجد براهين قوية ودامغة عليها كما يفعل عادة مع المجازر الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني.

إذاً فهمنا الآن لماذا الغرب وإسرائيل (يعشقان) نظام الأسد ولا يريدان التخلّي عنه، ولكن ماذا عن (المعسكر الشرقي)؟ لقد منح هذا النظام روسيا، وريثة الاتحاد السوفيتي، مالما يمنحه نظام آخر، لافي سوريا ولا في الشرق الأوسط. منها قاعدة عسكرية دائمة على البحر الأبيض المتوسط (في طرطوس) طالما حلم الروس بها منذ أيام القياصرة.

كما أن النظام جعل من نفسه الزبون (الأدسم) لتصريف الأسلحة الروسية الكاسدة والمختلفة التي عفا عنها الزمان. ثم أضاف لها (الصين) في ثمانينيات القرن الماضي كمزود ثان بأسلحة التي ليست أفضل بكثير من تلك الروسية ولا من البضاعة الصينية الغير صالحة للاستعمال لأكثر من مرة واحدة.

وقد فعل الأسد الأب ذلك بعد أن بدأ الاتحاد السوفيتي بالتفكك والافلاس العلني وبدأت إدارة (غورباتشيف) والإدارات التي تبعتها بمطالبتها بسداد ديون صفات الأسلحة السابقة. ولكنها عادا بعد ذلك واتفقا على التعاون معًا لسرقة وهدر أموال الشعب السوري.

طبعاً لا داعي هنا لشرح لماذا يعيش (مالي إيران) النظام السوري، فهذا واضح للعيان. ويكتفي القول أن النظام قد قدم لإيران خدمات جل لم تكن تحلم بها من قبل. فهو سمح لها (بتصدير ثورتها) إلى الدول العربية المجاورة عبر سوريا، وهذه خدمة سياسية طالما حلمت بها. ولكنه قبل ذلك وقف معها علناً خلال حربها مع العراق ثم سمح لها باقامة (قواعد تدريب قتالية) في سوريا، وهذه خدمات عسكرية.

وأخيراً سمح لها بارسال حملات (التشييع) التي اعتدت أن بامكانها تشيع الأغلبية السنوية في سوريا وعلى العلن، وهذه خدمة دينية طائفية لم تعرف سوريا مثلها منذ حملات القرامطة في القرن العاشر الميلادي.

أما لما زر (الأتراك) هذا النظام، فأيضاً من السهل فهمه. فالأسد الأب تخلى لهم رسمياً عن (لواء اسكندون) وساعدتهم بالتنسيق مع إسرائيل والغرب بالقبض على زعيم حزب العمال الكردي الشيوعي المعارض (عبد الله أوجلان) بعد أن طلبوا منه مغادرة سوريا عام 1998.

ثم أتى ابن وفتح الحدود الشمالية للبطائuch التركية لتمر إلى سوريا وبباقي دول العالم العربي وفق اتفاقيات اقتصادية أقل ما يقال فيها أنها غير متوازنة وليس لصالح الاقتصاد السوري. بالإضافة لذلك، فقد أعطى الأتراك أهمية خاصة للاعبين إقليميين بتوكيلهم بمهمة ظاهرية تتلخص بالتوسط مع إسرائيل فيما دعي بمحادثات السلام بين الطرفين.

وأخيراً نأتي إلى (الأنظمة العربية)، وكل واحد منها أحب أو تقبل النظام السوري بسبب المعسكر الذي يتبعه كل منها، غرباً كان هذا المعسكر أم شرقياً أم إقليمياً.

هذا التقديم يؤدي بنا إلى نتيجة على جانب من الخطورة، وفيها الإجابة على السؤال الذي ورد في عنوان النص: وهو أن كل حكومات العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً تحب أو تؤيد استمرار النظام السوري. أما الجهة الوحيدة التي لا تريده، بل تكرهه، فهي الشعب السوري نفسه وبغالبية أطيافه (ماعدا تلك المستفيدة منه أو المشاركة له باستعباد وقتل الشعب) وكذلك الشعوب العربية التي تلظت بناره مثل الشعبين اللبناني والعراقي. وهذه الحقيقة التي يعرفها كل العالم لم تكن ذات أهمية قبل اندلاع الثورة، إذ لم يكن أحد يقيم وزناً لما يريده أو لا يريد الشعب السوري مادام هناك دبابات يمكن للنظام أن يستعملها لدهس معارضيه. ولكن هذا التقديم للحالة السورية يؤدي بنا إلى سؤال لابد من الإجابة عليه وهو:

إذا كان كل العالم يحب هذا النظام ويرغب باستمراره، فلماذا إذاً وصل إلى ماوصل إليه الأمر من محاصرته وقطع العلاقات معه وفرض العقوبات الاقتصادية عليه وتهديده بالحشود العسكرية على حدوده؟ الجواب في غاية البساطة، وهو أن النظام هو من أوصل نفسه بنفسه إلى الوضع الذي نراه عليه اليوم.

فالدول الغربية التي لديها أنظمة ديمقراطية، لديها هامش محدود من المساحة التي تستطيع أن تتحرك فيها لدعم نظام دكتاتوري دموي كالنظام السوري. ولهذا نرى أن الدول المتبقية إلى جانبه اليوم هي تلك التي لا تقيم أي اعتبار لأرواح البشر وتعامل مواطنها بأسوأ مما تعامل الحيوانات، وهي الدول مثل إيران وروسيا والصين وكوريا الشمالية وكوبا وغيرها.

فالدول الغربية، وأيضاً الشرقية، حاولت جهدها ومنذ البداية تقديم النصح علناً وسراً لنظام الابن أن لا يل JACK لأسلوب الأب، فتكنولوجيا الاتصالات والإنترنت جعلت من المستحيل تكرار سيناريو مجازر الثمانينيات، ونصحته بإجراء إصلاحات

حقيقة كانت من الممكن أن تجنبه ماوصل إليه اليوم.

فكلنا تابعنا كيف بحث حنجرة التركي واهترأ حذاء القطري ونبت الحشيش على لسان نبيل العربي وأعيت الحيلة الأوروبي وعجز الأمريكي على أن يتجاوز الرجل مع ندائه ومناشاداته وتأكيده له بأنهم حریصون على بقاءه أكثر منه، فلا مصلحة لأحد بالتخلی عن نظام مهمته تنفيذ المهام القذرة ويوفر على الآخرين توسيخ أيديهم بها.

ولكن ولما فهم الغرب والشرق معاً ومن يدور في فلكهما أن لاحياء فيمن تنادي، وأن الرجل لا يريد أن يسمع أو يرى، تفاهموا وقرروا منحه المزيد من الوقت والفرص على شكل مبادرات ومؤتمرات عربية وأممية ومراقبين، لعل وعسى أن يتمكن من قمع الثورة على طريقة أبيه (وهي الطريقة التي لا يعرف غيرها أصلاً). فإذا نجح في ذلك، يتم طي الصفحة بحفلة مصالحة على طريقة (تبويض الشوارب وعفا الله عما مضى والحي أفضل من الميت وخلافه).

ولكن وبعد وصول النظام إلى مرحلة الجنون الكامل وارتكابه المجازر بالذبح بالسكاكين وحرق الناس أحياه على الهوية، قرر أصحابه من الغربيين والعرب ودول الجوار الانقضاض من حوله والانتقال إلى المعسكر المضاد، كما بدأت الانشقاقات الجماعية من داخله من العسكريين والدبلوماسيين ومؤخراً الوزراء بالتخلی عنه وتركه ليغرق وحده.

أما الروس والصينيين والإيرانيين فقد أصرّوا وبغبائهم المعهود إلا أن يبقوا في سفينته الغارقة، وما كانوا مجبرين لفعل ذلك لو حكموا العقل وتركوه يغرق وحده عملاً بالمثل الشائع (جنت على نفسها برافق) ولكن الشعب السوري حفظ لهم الجميل واستمر بالتعامل معهم والحفاظ على مصالحهم التجارية والسياسية والعسكرية، ولكن ماذا تفعل لمن ليس لديه ضمير أو عقل أو غير قادر على قراءة التاريخ.

في الخاتمة نلاحظ أن كل العالم اليوم ماعد يهمه المحافظة على الأسد بل المحافظة على نظامه الأمني بسيناريو يمكن أن يكون مزيجاً فريداً يجمع بين السيناريو الليبي والمصري والتونسي واليمني معاً. أما كيف سيحصل ذلك، وهل أن الشعب السوري المنكوب والثائر، والذي عرف عنه قبل الثورة بأنه سيد الدراما العربية بلا منازع، هل سيسمح لغيره بوضع سيناريو محاسبته لجلاديه وتقريره لمستقبله، فهذا ماتخبئه الأيام القادمة.

المصادر: